﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[1].

ثم التفقه في الدين ليس يختص بالأحكام حتى يحاول الحصول بالآية على حجية الخبر الواحد، بل الأصل فيه هو أصل الدين وعلى هامشه فرعه، فهل يتقبل أصل من الدين بخبر الواحد تقليديا؟ أم هو بحاجة إلى اقتناع بحجة مقبولة، وهكذا شأن الفروع كما تقول آية الذكر: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ: اسألوهم بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وهم أهل الذكر بالبينات والزبر.

فقد ينحصر القبول في حقل الدين بالكتاب والسنة القطعية، اجتهاداً تفصيلياً هو الاجتهاد، أم إجماليا هو التقليد، فليكن التقليد أيضاً بالاجتهاد قدر المستطاع، فالمسلمون كلهم متفقهون في الدين دونما استثناء مهما اختلفت الفاعليات والقابليات.

وحين يجب على غير النافرين إلى الجهاد أن يتفقهوا في الدين بوجه صالح مقبول، كذلك على النافرين إذا رجعوا إليهم أن يتفقهوا منهم بوجه صالح مقبول وهو إتباع علم أو أثارة من علم، دون اعتماد على ظن وما أشبه، ودونما تقليد أعمى.

وأصل الفقه وأثافيه أحكامياً وعقيدياً وسياسياً وعسكرياً وسواها من الفقه الإسلامي إنما هو القرآن وعلى هامشه السنة القطعية، فالمشي وراء سائر الأدلة المتخيلة، ولا سيما المجانية للكتاب والسنة، إنه سفاهة وليس فقاهة.

ذلك، والآيات القرآنية كهذه وما أشبه، ومن كتابات السماء[3]

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧.
(٣) فمما في كتب السماء ما ينقله في منية المريد عن الإنجيل في السورة السابعة عشرة منه: =

والروايات هي فوق حد الإحصاء، بكلمة واحدة هي فرض العلم دينيا فرض عين، ودنيوياً فرض كفاية.

ومما يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة»[١].

و«نوم مع علم خير من صلاة مع جهل»[٢] - و«إذا جاء الموت إلى طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً»[٣] و«طالب العلم أفضل عند الله من المجاهدين، والمرابطين، والحجاج، والمعتمرين، والمعتكفين، والمجاورين، استغفرت له الشجر والبحار والرياح والسحاب والنجوم والنبات وكل شيء طلعت عليه الشمس»[٤] - و«من أراد أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى العلماء»[٥] - و«تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، سالك بطالبه سبيل الجنة، ومؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ودليل على السراء والضراء، وسلاح على

= «ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار، أطلبوا العلم وتعلموه فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم فلا نعمل، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم ونعمل، والعلم يشفع لصاحبه، وحق على الله أن لا يخزيه، إن الله يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء ما ظنكم بربكم؟ فيقولون: ظننا أن ترحمنا وتغفر لنا، فيقول تعالى: فإني قد فعلت، إني استودعتكم حكمتي لا لشر أردته بكم، بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالح عبادي إلى جنتي ورحمتي» (العوالم ٢ - ٣: ١٢٥).

(١) العوالم (٢ - ٣: ١٣١) نقلاً عن منية المريد للشهيد الثاني.

(٢) المصدر ١٣٢.

(٣) المصدر (١٣٣) عن أبي ذر قال: باب من العلم تتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً وقال سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إذا جاء الموت..

(٤) المصدر عن عيون المعجزات وإرشاد الديلمي عن النبي ﷺ.

(٥) المصدر (١٣٣).

الأعداء، وزين الأخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم، ترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف، وينزل الله حامله منازل الأنبياء، ويمنحه مجالس الأبرار في الدنيا والآخرة، بالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل والعقل وزيره، يلهمه الله السعداء، ويحرمه الأشقياء[١].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأسباب بالأمور، ويده الرحمة، وهمته السلامة، ورجله زيادة العلماء، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وفائدته العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار»[٢].

وعنه عليه السلام: العلم أفضل من المال بسبعة: الأوّل: أنه ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة، الثاني: العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص بها، الثالث: يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه، الرابع: العلم يدخل في الكفن ويبقى المال، الخامس: المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة، السادس: جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال، السابع:

(١) المصدر ١٣٣ عن تحف العقول قل النبي صلى الله عليه وآله: ...
(٢) المصدر ١٣٥ تحف العقول عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث..

العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه[١].

وعنه ﷺ: «طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات»[٢]

وعنه ﷺ: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه وأشجع الناس من غلب هواه، وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً»[٣].

وعنه ﷺ: «من خرج يطلب باباً من علم ليرد به باطلاً إلى حق أو ضلالة إلى هدى كان عمله ذلك كعبادة متعبد أربعين عاماً»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد»[٥].

وعنه ﷺ: «الأنبياء قادة، والفقهاء سادة، ومجالستهم زيادة»[٦].

وعنه ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي - ثلاث مرات - قيل له: يا رسول الله ﷺ ومن خلفاءك؟

قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي فيعلمونها الناس من بعدي»[٧].

وهنا «حديثي» قبل «سنتي» وقرنه، لا ريب أنه يعني القرآن: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[٨] فكما النبي ﷺ مزدوج الشخصية الرسولية من

(١) المصدر ١٣٨ منية المريد عنه عليه السلام.
(٢) المصدر ١٤٣ عن أمالي الطوسي.
(٣) المصدر ١٤٣ مكارم الأخلاق.
(٤) المصدر ١٤٨ - أمالي الطوسي.
(٥) المصدر ١٤٩.
(٦) المصدر ١٦٧ - أمالي الطوسي.
(٧) المصدر ١٧٤ عيون أخبار الرضا عليه السلام.
(٨) سورة الجاثية، الآية: ٦.

الكتاب والسنة، كذلك الذين يخلفونه من معصومين عليهم السلام وسواهم، إنما هم يروون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم رواية صادقة حاذقة حادقة إلى الحق المرام من الثقلين.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «... ومن خرج من بيته يلتمس باباً من العلم كتب الله له بكل قدم ثواب (ألف) شهيد من شهداء بدر»(١)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سألت جبرئيل عليه السلام فقلت: العلماء أكرم عند الله أم الشهداء؟ فقال: العالم الواحد عند الله أكرم من ألف شهيد فإن اقتداء العلماء بالأنبياء، واقتداء الشهداء بالعلماء»(٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»(٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»(٤) وعن الصادق عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل حال»(٥).

ذلك، ولأن الفقه أخص من العلم، حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، لذلك أصبح الفقه والتفقه في الدين من ميزات العلم البارعة وكما في متواتر الحديث: «متفقه في الدين أشد على الشيطان من ألف عابد»(٦) و«لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه»(٧).

(١) المصدر ١٧٦ جامع الأخبار.
(٢) المصدر ١٧٦ عن عيون المعجزات.
(٣) المصدر ١٨٥ - أمالي الطوسي.
(٤) المصدر ١٩٧ - غوالي اللئالي عنه صلى الله عليه وآله وسلم.
(٥) المصدر ٢٠٠ - بصائر الدرجات.
(٦) المصدر ٢٤٥ غوالي اللئالي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ....
(٧) المصدر ٢٤٥ بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾:

صحيح أن ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾[١] تعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم[٢] وكما الإنذار والدعاية الإسلامية آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدني والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلباً للكفر وإيجاباً للإيمان.

ذلك ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ تحذروهم - أولاء وسواهم من الكفار - عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللّه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ...﴾[٣].

ثم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في القتال والغلظة، اتقاءً عن الإفراط والتفريط، مشياً على معتدل الجادة في سبيل الله كما أمر الله، وبصورة جادة.

فحين تشكّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فلا عليها ولا لها إلّا أن تقاتل جيرانها الأقربين من الكفار

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في تفسير القمي في الآية قال: يجب على كلّ قوم أن يقاتلوا ممن يليهم ممن يقرب من بلائهم ولا يجوزوا ذلك الموضع.
وفي الدر المنثور ٣: ٢٩٣ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عليه السلام انه سئل عن قتال الديلم فقال: قاتلوهم فإنهم من الذين قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وفيه ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] قال: الروم.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

المقاتلين المفسدين، اتقاءً عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنّد جنوده دفعة واحدة وحملة فاردة لاجتثاث الدولة الإسلامية التي غاية قوتها الحفاظ على نفسها من بأس الذين يلونهم من الكفار.

ذلك، ولأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لا تختص بدولة إسلامية، وهم مبعثرون في المعمورة، فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوما للعذاب على الكفار المفسدين الخطرين عليهم، حتى تعبّد الطريق لدولة المهدي عليه السلام العالمية.

فهنالك للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد في مثناه: دعائيا وحربيا، فالضلع الأوّل ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ لكل دولة أو دويلة أو مجموعة أو منظمة إسلامية سليمة، والثاني أن تتعاون كافة المجموعات الإسلامية في شتى أنحاء المعمورة، مترابطين مع بعضهم البعض ومرابطين وكما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ...﴾[1] والثالث والأخير - وهو من حصائل ذلك الجهاد الإسلامي المتكافل وفصائله - هو تأسيس الدولة الإسلامية العالمية بقيادة صاحب الأمر وولي العصر حجة بن الحسن العسكري عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، وأما الحرب الباردة الدعائية فلا حد لها إلا كافة الدعايات الكافرة، أن نحاربها بألسنتنا وأقلامنا.

وقيلة القائل الغائل إنها منسوخة بـ ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[2] منسوخة بأن ﴿كَآفَّةً﴾ هي وصف للمقاتلة المستفادة من ﴿قَـٰتِلُواْ﴾ فلتكن مقاتلة كافّة بأسهم عن المسلمين، تكفهم عنهم وتجعلهم في أمن منهم، فهم - إذاً - ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يلونكم جوار المكان والحدود الجغرافية

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

- أم ويلونكم جوار البأس مهما كانوا بعيدين، وهما ليسا إلّا قتال الدفاع، دون هجوم بدائي أيّاً كان.

ولقد كانت سنة الحروب للقائد الرسولي ﷺ هكذا في خطوات، من ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] في العهد المكي حرباً عقيدية، تبنياً لأعضاء الدولة وأعضادها في المدينة، وإلى حرب المشركين المدنيين ثم المكيين ثم سائر الجزيرة وإلى الشام والروم، حيث الجمع بين كل الأعداء في حرب واحدة منذ البداية، انسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدينين، ما لم يفعله قائد القوات الرسولية في زمنه فضلاً عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربين، ولا سيما الدخلاء الداخليين، تقدم حسب كل التكتيكات الحربية، كما وهي أقل مؤنة وأكثر معونة وأوجب دفعا للخطر الحادق الحاذق.

ثم ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ إن كانوا أقوياء، كان تعرّضهم لدار الإسلام أكثر وتبرزهم أخطر من البعيدين، فهم أولى بالدفع ممن سواهم، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاءهم عليهم أسهل، وإبقاءهم على حالهم اشتغالاً بالبعيدين يخلق لهم مجالاً للاستعداد، وعلى أية حال فـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2] فقد ابتدأ في كلا الغزو والدعوة بالأقربين، مراعياً سياسة الخطوة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم وما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحلياً، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

الجيوش الإسلامية إلى الروم وفارس إلى أن وحّدت الرقعة الإسلامية وتواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلّا الحدود المختلفة المختلقة المتخلّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، وترى ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تعني الخشونة والفظاظة التي تنافي في صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة في القوات المسلحة وسائر الاستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلاً عن المؤمنين، فقد تعني ﴿غِلْظَةً﴾ منكرة، الغلظة التي لا بد منها أمام المعاندين، فلا تنافي اللينة في الدعوة والرحمة في الدعاية فـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[1] فحين لا تؤثر الرحمة إلا زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة وقسوة على المظلوم، فهي - إذاً - غلظة أمام غلظة، بلا هوادة ولا تميّع ولا تراجع، إنها قوة وصلابة ومهابة ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[2].

ذلك، وكما أن الرأفة والرحمة في الدعوة الربانية من تقوى الله، كذلك الغلظة في محالها من تقوى الله، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن تقوى الله إلى الطغوى على حكم الله.

ولقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولي أو الرسالي، مبنية على تقوى الله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3] فلا يحب الطاغين.

ولقد كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.

خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وأدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم...[(١)].

إذاً فلا تعني الغلظة معهم إلّا في ضوء التقوى، وليست هي الوحشية

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وأخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول الله ﷺ قال: لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم.
وعن العرياض ابن سارية قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلاً ماردا متكبراً فأقبل النبي ﷺ فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟
فغضب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن عوف أركب فرسك ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلّا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال: أ يحسب أحدكم متكئاً على أريكته، قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.
ورفع إليه ﷺ - بعد إحدى المواقع - إن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزناً شديداً فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله ﷺ وهم صبية للمشركين، فغضب النبي ﷺ وقال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد.